الدكتور عبد الحليم محمود

الرعاية الحقوق الله

لأبي عبد الله الحارث المحاسبي

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

بقلم الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

روى صاحب طبقات الصوفية بسنده ، عن الحارث بن أسد المحاسبي بسنده أن رسول الله ، ﷺ ، قال : « أثقل ما يوضع فى الميزان : حسن الخلق » .

ولقد وضع المحاسبي هدفًا له فى الحياة يسعى إلى تحقيقه ، هو « حسن الخلق » . لقد وضعه هدفًا يعمل على تحقيقه فى نفسه ، ووضعه هدفًا يعمل على تحقيقه فى مجتمعه . أما فيما يتعلق بنفسه ، فإنه أخذها بتحقيق صفة العبودية على أساس من القرآن والسنة لا يحيد عنه .

وإنه ليعبر عن شعاره فى ذلك ، فيقول هذه الكلمة التى تصفه حالا ومقالا : « إذا أنت لم تسمع نداء الله ، فكيف تجيب داعى الله ؟ ومن استغنى بشىء دون الله ، جهل قدر الله » .

ولم يجهل المحاسبي قدر الله ، فلم يستغن بشىء دونه سبحانه .

وأما فيما يتعلق بالمجتمع ، فإن المحاسبي أخذ فى نشر حسن الخلق فيه بسمته ، واتباعه للسنة ، وبدروسه التى كانت تفعل الأعاجيب فى القلوب وبكتبه التى تبين حسن الخلق : وسائل وغايات ، والتى لا يزال لها إلى الآن أريج عطرى يتجدد على مر الزمن ، فيهدى الحيارى ، وينير الطريق أمام السالكين .

* * *

ولكن من هو المحاسبي ؟ ومالنا نتعجل ، فنتحدث عن المحاسبي فى القمة قبل أن نبدأ معه من البداية ؟

إنه الحارث بن أسد المحاسبي ، وكنيته : أبو عبد الله .

ولقد نشأ بالبصرة ، واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها فى يقين جازم . ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها فى سن مبكرة ، واستقر به المقام فيها .

*

متى ولد ؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده إذ أن الكتب القديمة التى تحدثت عنه ، لم تذكر ذلك ، بيد أن الملابسات ترشد إلى أنه ولد – على التقريب – فى العقد السابع من القرن الثانى الهجرى .

أما وفاته فإن الكتب التى أرخت له تحدد سنة ٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة .

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئًا ؛ وقد يمكننا أن نقول : « استنتاجا » إنه قضى طفولته فى شىء من اليسر والرخاء ، ذلك أن والده حينما توفى ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم .

ويروى المؤرخون أن المحاسبى حينما توفى والده لم يأخذ من هذه الثروة شيئًا تورعًا ؛ ذلك أن والده كان يقول بالقدر : أى أنه كان قدريًا يدين بمذهب المعتزلة ، فلم يستسغ المحاسبى أن يشترك فى الميراث ، توسعاً فى تطبيق القاعدة الإسلامية التى تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين .

وما من شك فى أن المحاسبى امتنع عن ذلك لمجرد الورع ، والزهد فيما تجره الثروة وتستتبعه من تفكير فيها ، وتدبير لها ، وتنمية وحفظ .

هذه الحادثة ترشد إلى أمور :

الأمر الأول : هو أن أسرة المحاسبى كانت أسرة ميسورة .

الأمر الثانى : هو أن والد المحاسبى كان من الذين اشتركوا فى الثقافة الدينية ، والجدل الكلامى ، وساهم فى ذلك بنصيب وحدد المعسكر الذى يقف جنديًا فى جيشه .

وما من ريب فى أن العامة حينئذ لم يكونوا فى صف المعتزلة ، وما كان الذى يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختبار ، وأن الطريق التقليدى الذى كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة .

والأمر الثالث الذى ترشد إليه الحادثة : هو ورع المحاسبى الذى حمله على أن يزهد فى الميراث مع حاجته إليه : تورعاً وتقوى .

ونبأ آخر نتبين منه شيئًا عن شخصية المحاسبى . يقول الجنيد : كنت كثيرًا أقول للحارث : عزلتى أنسى .

فيقول : كم تقول عزلتى أنسى ! ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنسًا . ولو أن نصف الخلق الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم .

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبى ، والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التى أحاطت بالمحاسبى ، ومواقف المحاسبى منها ، وحديث تلاميذه عنه – وإن كان نادرًا كل

ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية .

ومما يستأنس به تأييدًا للقصة السابقة ، وإشارة إلى ما للمحاسبى من شخصية قوية ، وبيانًا عابرًا عن بعض أساليبه فى تأليف كتبه ، ما رواه الجنيد أيضًا بقوله : كان الحارث المحاسبى يجىء إلى منزلنا ، ليقول : اخرج معى نصحر . (نذهب إلى الصحراء) فأقول له :

تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى ، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ؟ فيقول « اخرج معى ، ولا خوف عليك ، فأخرج معه ، فكأن الطريق فارغ من كل شىء ، لا نرى شيئًا نكرهه » .

فإذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى :

سلنى .

فأقول له : ما عندى سؤال أسأله .

فيقول : سلنى عما يقع فى نفسك .

فتنثال على السؤالات ، فأسأله عنها ، فيجيبنى عليها للوقت .

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتابًا .

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبى لم يكن يخشى : « الطرقات والآفات ورؤية الشهوات » ، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر ، كلا ، إنه يجابه الحياة محاولا السير بها إلى ما يراه حقًا وإصلاحًا .

أما فيما يتعلق بطريقته فى التأليف : فإنه يعمل أحيانًا على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه ، وهى طريقة حية : إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأى الصريح فيه .

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق فإن بعضها كان إسهاما فى الحركة المقاومة لحركة الاعتزال ؛ وكان بعضها حلقات فى التخطيط الذى رسمه المحاسبى للإصلاح الأخلاقى فى المجتمع .

• • •

على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى فتحدثنا عن المحاسبى فى القمة ولم نتدرج معه تدرجاً طبيعيًا .

ولنعد إلى المحاسبى أول مقدمه بغداد : كان ذلك فيما يبدو فى سن مبكرة نسبيًا .

وكانت بغداد حينئذ تموج بمختلف التيارات الفكرية : ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة سيدة متغلبة .

وثقافة فارسية يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ ، بما لهم من مال وثراء ، وبما لديهم من ترف فكرى ، وبما فى نفوسهم من كبت لزوال ملكهم يحاول أن يتنفس – شاعرًا أو غير شاعر – فى صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة .

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى ، تريد أن تجد حلاً للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان وَالأجواء الثقافية .

وثقافة إسلامية بحتة ، تجاهد فى أن تفوز فى قيادة المجتمع إلى الهداية الربانية والرشاد الإلهى .

وجاء المحاسبى بغداد متعلمًا ، ومتثقفًا ، أو مستزيدًا من العلم والثقافة : يبتغى السير على السنن المستقيم ؟

وأخذ فى الدرس فى جهد واجتهاد : فتشعبت به الطرق ، وتجاذبته الثقافات المختلفة ، تحاول كل منها ، أن تستأثر به وحدها ولكل منها مغرياتها ، ولكل منها منطقها .

ووقف المحاسبى مستوعبًا ، متأملا ، مترويًا .

هل طال به الوقوف ؟

متى خرج من تأمله ؟

متى استقر به الاتجاه ؟

ذلك مالا نعلمه ، إذا نظرنا إلى الزمن .

بيد أن المحاسبى ، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته ، تأريخا زمنيًا ، فإنه ترك لنا أثرًا نفسيًا ، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه ، وَتحدث فيه عن حيرته الفكرية وعن أسبابها ، وعن كيفية خروجه منها .

وهذا الأثر نعتبره ، أساسًا لكتاب : « المنقذ من الضلال » راسمًا للإمام الغزالى تخطيطه ، موجهًا له إلى كتابته ، بل راسمًا له الطريق فى حياته الروحية .

ولعل التشابه بين هذا النص الذى نثبته الآن ، وكتاب : « المنقذ من الضلال » يجعلنا نستنتج أن التشابه قوى بين المحاسبى ، والغزالى فى حياتهما .

ولأهمية هذا النص بالنسبة للمحاسبى ولعصره ، وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال صلة وثيقة نثبته بأكمله ، وإن كان فيه بعض الطول ، وقد كتبه المحاسبى مقدمه لكتابه : « الوصايا » الذى طبع أخيرًا بالقاهرة ، يقول المحاسبى – فى مفتتح كتابه ، الوصايا – بعد مقدمة موجزة :

« أما بعد : فقد انتهى إلينا : أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية والله أعلم بسائرها .

فلم أزل ، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة ، وألتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيرًا من كلام الله عز وجل ، بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ونظرت فى مذاهبها وأقاويلها ، فعقلت من ذلك ما قدر لى .

ورأيت اختلافهم بحرًا عميقًا قد غرق فيه ناس كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة فيمن تبعهم ، وأن الهالك من خالفهم ، ثم رأيت الناس أصنافاً : فمنهم العالم بأمر الآخرة لقاؤه عسير ووجوده عزيز . ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتمس بعلمه التنظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم متشبه بالنسّاك ، متّجر بالخير ، لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه .

ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل .

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقى .

ومنهم متوادّون : على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتباذلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفى الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر والسوء معروف ، فتفقدت فى الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعًا .

فقصدت إلى هدى المهتدين ، بطلب السداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر وأطلت النظر ، فتبين لى ، فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجماع الأمة : أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيل المكث فى العمى ! !

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبى ، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتادًا لطلب الفرقة الناجية ، حذرًا من الأهواء المردية والفرقة المالكة ، متحرزًا من الاقتحام قبل البيان ، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة : فى التمسك بتقوى الله ،

وأداء فرائضه ، والورع فى حلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسى برسوله ﷺ ، فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء فى الآثار ، فرأيت اجتماعا واختلافًا ، ووجدت جميعهم مجتمعينُ على أن علم الفرائض والسنن : عند العلماء بالله وأمره .

وأن الفقهاء عند الله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله ﷺ ، المؤثرين الآخرة على الدنيا ، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم والموصوفين ، أقفو آثارهم ، وأقتبس من علمهم ، فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرسًا كما قال رسول الله ﷺ :

« بدأ الإسلام غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء » .

وهم : المنفردون بدينهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئنى ، على اضطراب من عمرى ، لاختلاف الأمة ، فانكمشت فى طلب عالم ، لم أجد لى من معرفته بدًّا ، لم أقصر فى الاحتياط ولم أَنِ فى النصح .

فقيض لى الرءوف بعباده ، قومًا وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا .

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة لا يرجون أحدًا فى معصيته ، ولا يقنطون أحدًا من رحمته .

يرضون أبدًا بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء .

يحببون الله تعالى ، إلى العباد ، بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى .

علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء . ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعمهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بشأنهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة وجزيل الثواب ، وأليم العقاب . ذلك أورثهم الحزن الدائم ، وَالْهمّ المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات وحددوا للورع حدودًا ، ضاق لها صدرى وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع : بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لى فضلهم واتضح لى نصحهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم ، فأصبحت راغبًا فى مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محبًّا لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئًا ، ولا أوثر عليهم أحدًا .

ففتح الله لى علمًا انفتح لى برهانه وأنار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقر به أو انتحله ، وأيقنت بالفوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكما على قلب من جهله وجحده . ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجبًا علىّ .

فاعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى وتقلبت فيه بأحوالى .

وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به علىّ ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك وأنى لا أدرك شكره أبدًا » .اهـ .

ووجد المحاسبى نفسه حينئذ فى معسكر أهل السنة على وجه العموم ، وفى تيار الصوفية منهم على وجه الخصوص .

ولم يكن المحاسبى . ذا طبيعة سلبية ، فكان لابد من أن يدخل المعركة . ودخل المعركة فى قوة قوية مسلحًا بالعلم والتقوى .

ومن أجل ذلك كان ذا أثر مزدوج .

لقد أثر باعتباره قدوة وأسوة وَأثر باعتباره عالماً باحثًا .

وأثره كعالم ، كان يظهر فى دروسه ومناقشاته ، ويظهر فى كتبه .

كتبه :

أما كتبه فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف . حسبما روى السبكى فى : « طبقات الشافعية » والمناوى فى « الكواكب الدرية » .

وهذه الكتب – فى أغلبها الأعم – إنما هى فى هداية النفوس ، وترقيق القلوب ، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح : إنها فى أغلبها فى علم التصوف والسلوك .

يقول التميمى – كما جاء فى الكواكب الدرية – عن المحاسبى :

« هو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف ، والحديث والكلام » .

ولقد كتب المحاسبى فى هذه العلوم جميعها ، بيد أن مسحته الظاهرة ونزعته الواضحة والكثرة الكثيرة من كتبه ، إنما كانت فى التصوف والكلام .

أما كتبه فى الكلام ، فإنها قد فقدت ، ولقد رأينا قطعة لا بأس بها من كتبه فى الكلام الذى فقد والذى كان عنوانه : « فهم القرآن » .

ومنهجه فى الكتاب ، يفهم من عنوانه ، إنه كان يرجع إلى القرآن فى الرد ويتخذ منه مرشدًا وهاديًا .

ولعل السبب فى إهمال كتبه الكلامية وفقدها : هو حملة الإمام أحمد بن حنبل عليها .

يقول الخطيب البغدادى ، فى كتابه « تاريخ بغداد » (جزء ٨ ص ١١٤) .

«وكان أحمد بن حنبل ، يكره للحارث نظره فى الكلام ، وتصانيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه » .

ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالى فى كتابه : « المنقذ من الضلال » ويفصل الرأى فيها ويحسم المسألة بحل موفق فيقول :

لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى – رحمهما الله – تصنيفه فى الرد على المعتزلة .

فقال الحارث :

« الرد على البدعة فرض » .

فقال ، أحمد :

نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها ، فبم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟

وما ذكره أحمد : حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية ، ولقد أصاب الإمام التوفيق فى رأيه .

وما من شك فى أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الإمامان : أحمد والمحاسبي متعاصرين ، وحدث بينهما اختلاف فى الرأى يتعلق بالكتابة فى المسائل الكلامية ، وحمل الإمام أحمد على كتب الإمام المحاسبى فى علم الكلام فقلّ تداول الناس لها – فيما يبدو – واختفت شيئًا فشيئًا ، ولعل بعضها لا يزال موجودًا ، بيد أننا لا نعلم عنها شيئًا .

على أن رأى المحاسبي فى المسائل الكلامية معروف تحدث عنه الشهرستانى وغيره ممن كتبوا فى الملل والنحل ، وهو الرأى السلفى ، ولم تكن حملة الإمام أحمد عليه لرأيه وعقيدته ، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان ، وإنما كان إنكار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة التى ينصر بها الدين ، وما من ريب فى أن ما قام به الإمام المحاسبى فى الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الانحراف : إنما هو فى الوقت نفسه انتصار للإمام أحمدبن حنبل وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته ، رضى الله عنهما .

* * *

أما كتبه فى أدب النفس وتزكيتها وفى الإنابة إلى الله والرجوع إليه وفى الرعاية لحقوق الله وفى التصوف على وجه العموم : فقد بقى منها كثير عرفنا عنه جملة صالحة لاتزال مخطوطة ، وطبع البعض فى أوربا والقاهرة ، وسوريا .

ونتحدث هنا فى إيجاز عن بعض هذه المؤلفات ، ثم نفصل القول فى كتاب الرعاية .

١ – كتاب الوهم :

أول ما طبع للمحاسبى : «كتاب الوهم» طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٧م وقد عنى الدكتور ا.ح. أربرى ، وكتب مقدمته الدكتور أحمد أمين ، وفى المقدمة يقول عن الكتاب :

« نحا فيه منحى طريفًا يدل عليه اسمه فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار فى الخوف والرجاء ، كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه وبعبارة أخرى خياله - فى وصف شعور أهل الجنة وَأهل النار وما يلقون من : سعادة وشقاء ونعيم وعذاب ، وأسلس لخياله القيادة فتخيل ما تخيل وصور ما صور فهى لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها أو رواية رائعة لكاتب جمل منظرها وفصل مواقفها وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التى تتضمنها فى نفوس القارئين والسامعين أكبر الأثر وأبلغه » .

٢ – رسالة المسترشدين :

وطبع له فى حلب رسالة المسترشدين « حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد الفتاح أبو غده » وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها المحاسبى الإرشاد للمسترشدين الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب العالمين بالله وبأمره ومنهاج ذوى الألباب – كما تحدده الرسالة – إنما هو رعاية صدور الشريعة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وما اجتمع المهتدون من الأئمة وهذا هو الصراط المستقيم الذى دعا إليه عباده وقال جل وعز :

(وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ» والرسالة إنما هى إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج فهى تتحدث عن التوبة والتقوى والخطرات والخوف من الله والصبر والرضا ، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله السالكين إليه .

٣ – كتاب الوصايا :

وطبع له فى القاهرة أخيرًا : «كتاب الوصايا» ، تحقيق وتقديم : عبد القادر أحمد عطا .

والعنوان مكتوب هكذا : « الوصايا أو النصائح الدينية والنفحات القدسية لنفع جميع البرية » ، وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وإن كان على صورة أوسع ، وبأسلوب متين الحدة ، وهو أقل تعمقًا وجزالة من أسلوب الكتاب السابق .

٤ – كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل :

وكتاب الرعاية : هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب المحاسبى ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع فى حوالى أربعمائة وستين صحيفة من القطع الكبير . وهو على كل حال أهم كتبه فى نظر القدماء والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب المحاسبى إلا كتابًا واحدًا : فإنه يكون « الرعاية » وهو بالنسبة للمحاسبى ، كإحياء علوم الدين بالنسبة للغزالى ، وقد حاول المحاسبى أن يشرح فيه الطريق الذى يحقق الرعاية لحقوق الله تعالى .

ويبدأ المحاسبى ، كتاب « الرعاية » بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى ، ثم يتحدث عن حسن الاستماع :

« فقدم حسن الاستماع منك ، لما أجبتك به لعل الله عز وجل أن ينفعك بفهم ما أجبتك عنه : من الرعاية لحقوق الله عز وجل والقيام بها ، فإن الله تبارك وتعالى ، أخبرنا فى كتابه : أنه من استمع كما يحب الله ويرضى ، كان له فيما يستمع إليه ذكرى ، يعنى : اتعاظًا . ثم يذكر المحاسبى الآيات الدالة على هذا والأحاديث .

ويرى القارئ فى هذا النص الذى نقلناه من الصحيفة الأولى للكتاب أمرين :

الأمر الأول : أن المحاسبى ، يفترض مخاطباً يخاطبه ، أو سائلا يسأله والمحاسبى يجيبه .

والواقع أن الكتاب كله يسير على هذا النسق : أسئلة من مخاطب وإجابات من المؤلف .

وما من شك فى أن بعض الأسئلة التى أوردها المحاسبى قد سئلها بالفعل ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن بعض كتب المحاسبى ألف استجابة لأسئلة .

بيد أن كتاب « الرعاية » يظهر فيه – فى وضوح – من التناسق والترتيب والتخطيط ما يبعد الظن بأنه ألف استجابة – مجرد استجابة – لأسئلة وقتية .

أما الأمر الثانى الذى يتبينه الإنسان من النص ، فهو أن المحاسبى يرجع إلى الكتاب الكريم ، يستند إليه فى آرائه ، إنه يقول :

« فإن الله تبارك وتعالى أخبرنا فى كتابه ... » .

وهذا التعبير ، أو ما فى معناه : سار فى جميع أجزاء الكتاب ، ويضاف إليه الاستناد إلى السنة .

وقد كان المحاسبى من المحدثين ، تلقى الحديث على أعلام السنة ، وتلقى عنه أعلام السنة .

وبعد أن قدم المحاسبى ، ضرورة حسن الاستماع ، بدأ فى شرح معنى :

الرعاية لحقوق الله ، وهى أمر عظيم أصبح عامة الناس – كما يقول المحاسبى – له مضيعين :

وما من شك فى أن : « كل ما أمر الله عز وجل بالقيام به ، قد أمر برعايته » « وكل حق أوجبه الله جل وعز على عباده فى خاصة أنفسهم ، أو فيما أوجب لبعضهم على بعض : فقد أمرهم بحفظه والقيام به ، وذلك رعاية حقه الذى افترضه عليهم » .

وسواء أقلت : الرعاية لحقوق الله أم قلت : « التقوى » فإن المعنى لا يكاد يختلف ، ذلك أن التقوى إنما هى : اتقاء الشرك فما دونه من ذنب ، من كل ما نهى الله عنه . واتقاء تضييع واجب

مما افترضه الله . والرعاية والتقوى هما : الاستجابة إلى الأمر والانتهاء عما نهى الله عنه .

ومن أجل ذلك تحدث المحاسبى عن التقوى بعد شرحه لمعنى الرعاية توضيحًا للرعاية وبيانًا لها ، وبيّن جزاء المتقين وأنهم : (فى مقام أمين) ، ويقال لهم عن الجنةُ : (ادخولها بسلام آمنين) .

والناس دائمًا يريدون الأمور محدودة مرسومة ، فيسألون عن الخطوة الأولى التى يخطوها من يريد أن يسلك الطريق إلى الله ؟ وعن كيفية البدء فى الإعداد للمقام بين يديه سبحانه ؟ .

« فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام : تقوى الله عز وجل ، فى السر والعلانية ، ليأمن قلبك فى ذلك المقام مع قلوب المتقين حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور » .

فالتقوى أول منزلة العابدين ، وبَها يدركون أعلاها وبها تزكو أعمالهم لأن الله عز وجل لا يقبل عملا إلا ما أريد به وجهه .

ولكن الإنسان قد يكون مغترًّا مخدوعًا بعبادته :

فكم من متقشف فى لباسه ، متذلل فى نفسه ، آخذ من حطام الدنيا اليسير؟ ومن مصلٍّ وصائم وغاز وحاجٍّ وباك وداع ومظهر للزهادة فى الدنيا ، والرفض لها ، على غير صدق ولا إخلاص ولا صلاح حقيق ؟ .

وإذا ما أراد إنسان من هؤلاء : أن يزن أعماله بموازين الدين ، إذا استيقظ فؤاده فأراد أن يعرف أين هو من المخلصين ؟ فعليه أن يرجع إلى نفسه ويعرض أيامه التى خلت من عمره فى عبادته وينظر : هل أتى عليه يوم منها حفظ فيه جوارحه وقلبه عما كره الله ؟ ! وهل سلم من العجب والكبر والحسد والشماتة وسوء الظن ؟؟ ولعله بعد هذا العرض يتواضع ويبدأ فى إصلاح أمره .

على أن التقوى وإن كانت أول منازل السالكين ، فإنها معنى عام ، يبدأ أول ما يبدأ حينما يعلم الإنسان أنه عبد مربوب « لأن أول ما يلزمك فى صلاح نفسك الذى لاصلاح لها فى غيره ، وهو أول الرعاية : أن تعلم أنها مربوبة متعبدة ، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه » .

والطاعة سبيل النجاة .

والعلم هو الدليل على السبيل .

ولا بد للتقوى من المحاسبة ، وقد كان المحاسبى كثير المحاسبة لنفسه ، بل إنه لم يسم المحاسبى إلا لهذه المحاسبة . وقد روى عن النبى ﷺ :

« الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » . وقوله : دان نفسه : يعنى حاسب نفسه . ولقد قال سيدنا عمر رضى الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، وتهيئوا للعرض الأكبر » .

وكتب إلى أبى موسى : « حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة » هذا الذى قدمناه للآن يعتبره المحاسبى كالمقدمات العامة للموضوع ثم يأخذ فى وصف :

«منازل التوابين» ويبين فيه اختلاف الفطر والجبلّات. فمن الناس من نشأ على الخير، فرعاية حقوق الله عز وجل عليه أسهل ، ومنهم تائب بعد صبوته ، وراجع إلى الله عن جهالته ، وإنه ليدخل فى نطاق قوله تعالى :

(والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) .

أما الثالث : فإنه المصرُّ على ذنبه المقيم على سيئاته إنه : « محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه فيتوب إلى ربه من ذنبه ، فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله : الناشئ على غير صبوة ، والمنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى . ما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار؟ أما الذى يبعثه على التوبة وترك الإصرار فهو الخوف والرجاء ، يقول تعالى :

(وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى) .

فأخبر عز وجل أنه لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى . ولقد وصف الله أولياءه بأنهم يدعونه رغبًا ورهبًا . أى راجين خائفين : وينال الخوف والرجاء ، بأن تصبح المعرفة بعظم قدر الوعد والوعيد واضحة سافرة ، والله سبحانه قد خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا ورجانا لنرجيها ، ومما يعين على ذلك وقد أمرنا الله به : أن نفكر فى المعاد وهجوم الموت ، وعظيم حق الله عز وجل ، ووجوب طاعته .

وحقًّا إن الفكر فى ذلك ثقيل على النفس بيد أنه مما يخفه علم الإنسان بعظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع فى الدنيا والآخرة . ذلك أن فى نعيم الطاعة فى الدنيا والظفر بنعيم الآخرة سعادة لا تعدلها لذة المعاصى .

ولن يتذكر متذكر أو يفكر فى المعاد والنجاة مفكر ما لم يجتمع همه ، فطريق الفكرة ومفتاحها إنما هو : « اجتماع الهم مع المطالبة بالعقل والتوكل على الرب لا على العقل » .

واجتماع الهم إنما هو بعدم تشتت القلب والجوارح فى ميادين اللعب واللهو يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « طوبى لمن يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس ذكر ربه بما تسمع أذناه » .

على أن المصرِّين فى منازل شتى : فمنهم من كثرت ذنوبه ومنهم من قلت ذنوبه ، ومنهم تائب من بعض ذنوبه وهو مصرٌّ على البعض الآخر .

وعلاج كل ذلك هو إدمان الفكر بالتخويف كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوى ، وإدمان الفكر بالتخويف يستمر إلى أن تسخو نفسه بالتوبة الخالصة النصوح التى يوقن فيها أنها كانت بمنة ربه وتفضله سبحانه لا بقوته هو ، فيستأهل بذلك الزيادة من الله عز وجل ، لأنه بقول :

(لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وفى التفسير : لأزيدنكم من طاعتى . على أنه إذا سخت نفسه بالتوبة فتاب فإنه يجب أن يستمر فى تيقظه وحذره ، فإن الاهتمام والحذر إن ألزمها قلبه يوقظاه فيما يستقبل من عمره ، ، فإذا استمر على توبته دخل تحت قوله تعالى :

(رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) .

ومما لا مماراة فيه : أنه لابد للخلق أجمعين من معرفة حقوق الله ، عز وجل بأسبابها وأوقاتها وعللها وإرادتها ووجوبها وفيم هى ؟

وأيها بدأ الله عز وجل به خلقه ؟

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ الله عز وجل به ، فيبدأ برعاية حقوق الله عز وجل فى قلبه إذ عنه تكون أعمال الجوارح . وجمل حقوق الله عز وجل فى القلب ثلاث : اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر ، واعتقاد السنة ومجانبة البدعة ، واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على ما يكره الله عز وجل من عمل قلب وبدن . وجمل حقوق الله عز وجل فى الجوارح : القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى ، وترك الحركات وهو السكون عما كره الله عز وجل .

على أنه مع كل ذلك لابد من مراعاة حقوق الله عز وجل عند خطرات القلب الداعية إلى كلُ خير وشر .

وقد تكون الخطرات من هوى النفس ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(إن النفس لأمارة بالسوء) .

وقد تكون خيرًا .

ومهما يكن من شيء فإنه إذا عرضت الخطرات عَرضها على الكتاب والسنة : فما وافق قبله وما خالف رفضه : يجب أن يشهد له العلم ، أن الله عز وجل قد أمر بها وندب إليها أو أذن فيها بأسبابها ، وعللها ، ووقتها ، وإرادتها فيها ، فإنه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى سنة وهى بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهى معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهى شر . كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه عن الخلق بالفكر ، وَإلى الرجاء على العمل بالعجب وَالغرة ، وإلى المنافسة بالحسد ، وإلى الغضب لله عز وجل يتمنى البلاء فى الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد استحلال ما حرم الله عز وجل منهم ، ونحو ذلك من الخطرات وإلى القدر[1] بتنزيه الله عز وجل وإلى رأى جهم[2] بنفى التشبيه وإلى التشبيه بنفى رأى جهم ، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد ، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة فى الجملة يحسبها سنة ، ومما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدُّوها سنة فكذلك أهل السنة لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون .

ولولا ذلك ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده بالسنة فى عبادة ولا غيرها ، لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع فى زهده وفى رضائه وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم الزهد فى الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين ، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل والأولاد ، والخروج فى السفر بلا زاد ، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين ، وبتحريم الدواء ، وترك التمنى أن المعاصى لم تكن ، وبالاشتغال بالله عز وجَل بترك الفرائض وبترك النوافل ، ودعوى البصائر واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما فى ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون ، ويحتجون فى ذلك بآثار مثل قوله ﷺ : « المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار والكتاب والمقاييس ولكن يطول ذكرها ، وإنما أردنا تحذير جملتها ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

---

(١) القول بالقدر : هو القول بحرية الإرادة : أي أن الإنسان حر فيما يأتى وميما يدع من الأفعال وليس مجبورًا من الله على عمل من الأعمال .

(٢) رأى جهم فى الصفات ، هو : أن الصفات عين الذات .

وكذلك الخطرات التى تدعو إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال : كالقدر . ورأى جهم ، والرفض . والاعتزال ، ونحوه ، فلن يميز العبد بين ذلك وبين ما أحب الله عز وجل من الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم » .

لقد تعمدنا نقل هذا النص السابق بطوله لأنه يدل على اتجاه المحاسبي فى الجانب العقدى ، أى إنه يحدد اتجاهه بالنسبة للفرق الموجودة فى عصره ، وهو نص غاية فى الأهمية من الناحية الصوفية ومن الناحية الكلامية .

أما من الناحية الصوفية فإن المحاسبى يحمل على من يدعو إلى الإخلاص بترك العمل و إلى التنزه عن الخلق بالفكر ، ويرى أن ذلك خطرات شيطانية وكذلك الأمر فى كل خطرة تدعو إلى نوع من الزهد والرضا والتوكل الذى يخالف زهد الأئمة ورضاءهم وتوكلهم ويقينهم ، أى تخالف السنة .

ومن أمثال ذلك اعتقاد قوم الزهد فى الدنيا بتضييع العيال وبَترك وجوب حق الوالدين .

وإنه لمن الانحراف الشيطانى – فيما يرى – أن يمتنع قوم عن الاكتساب على الأهل والأولاد أو الخروج فى السفر بلا زاد تحت تعلة التوكل ، أو أن يرضى بالبلاء يقع بالمسلمين ويحرم الدواء ويمتنع عن الدعاء وكل ذلك تحت تعلة الرضا .

إلى آخر ما ذكره المحاسبى من ذلك .

أما من الناحية الكلامية فإن هذا النص يبين أن المحاسبى لا ينتسب إلى المعتزلة ولا إلى الجهمية ، ولا يقول بالتشبيه ولا بالتعطيل ، ولا بوجوب تحقق الوعيد ، وأنه ليس من المرجئة وليس من الشيعة .

إن هذا النص الذى جاء فى صورة عابرة يشير إلى بعض ما كان يمكن أن يفصل لو أننا عثرنا على الكتب التى فقدت ، ولكن أهميته لا تقل بسبب إجماله ؛ إذ هو واضح كل الوضوح فى بيان موقف المحاسبى من الفرق الكلامية ، ومن الاتجاهات المنحرفة فى التصوف .

ثم بعد هذا يأخذ المحاسبي فى شرح ما يبتدئ به الإنسان من أداء الفروض وترتيب ذلك ، فإذا عرض للعبد أمران وَاجبان فى وقت واحد ، بدأ بأوجبهما ، مثال ذلك ، فى الوالدين : فإن العبد يبدأ بحاجة والدته لأن برها مقدم فى سُنَّةِ النبي ﷺ ، وكذلك إذا وجب عليه الحج بالاستطاعة المالية وعليه دين حل موعده ، فليؤد إلى الدائن حقه .

وإذا عرض له واجبان لأحدهما وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته ، بدأ بما يفوت وقته قبل

الآخر، كالرجل يريد الحج فى وقت فيه سعة من الأيام فيأمره والداه أن يقيم إلى آخر الوقت للحج فليطعها .

وإذا كان فى فرض فَعَرض له فرض دونه : لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه ، كما إذا كان فى الحج المفروض محرمًا به فكتب إليه والداه بالحضور فليتمه ولا يخرج منه .

وإذا كان فى فرض فعرض له فرض أوجب منه ، قطعه بعد مايحل فيه كالصلاة ، وكما إذا أمره والداه ألا يخرج من بلدهما ، فيحضر النفير لظهور المشركين على المسلمين وليس فى وجوههم من يقوم بقتالهم فعليه الخروج وترك المقام .

وإن عرضت له نافلة وهو فى واجب لم يقطعه من أجلها .

وكذلك الفضل وَالتطوع يبدأ بالأفضل فالأفضل .

على أن الواجب أن يبادر الإنسان بالعمل على نجاة نفسه حتى لا يكون مثله كمثل من قال الله عز وجل فيه :

(حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت) .

قال الله عز وجل مجيبًا :

(كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) .

قال عبد الرحمن بن يزيد لرجل يعظه : يا فلان هل أنت على حال ترضى فيها الموت ؟

قال : لا .

قال : فهل أجمعت للنقلة إلى حال ترضى فيها الموت ؟

فقال : لا ما سخت نفسى بذلك بعد .

قال : فهل بعد الموت دار فيها مستعتب ؟

فقال : لا .

قال : فهل تأمن بغتة الموت ؟

فقال : لا .

قال : ما رأيت مثل هذا الحال رضى بها عاقل ...

والعاقل هو الذى يتوب قبل الموت – أى على الفور – توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا ، بأن لو قيل له : إنك تموت الساعة فإنه لا يجد عنده ذنباً يحتاج إلى التوبة منه فيسأل النظرة من أجله .

ولقد أجاد سيدنا عمر بن عبد العزيز فى الحض على الذكر والفكر حينما قال فى خطبته :

« ألا ترون أنكم تتقلبون فى أسلاك الهالكين ، ويرثها منكم الباقون ، كذلك حتى تردون إلى خير الوارثين ، وأنتم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عز وجل ، تضعونه فى صدع الأرض ثم فى بطن صدع ، قد توسد التراب وخلف الأحباب ، وقطع الأسباب موجه للحساب غنى عما خلف ، فقير إلى ما قدم » .

ثم يبدأ المحاسبى شرح وتحليل الرذائل النفسية ووصف العلاج لها : تلك الرذائل التى تحبط الأعمال وتنفى الإخلاص .

وأول هذه الرذائل هو : « الرياء » ويستفيض المحاسبى فى الحديث عن الرياء استفاضة تتناسب مع تغلغله فى النفوس ، وتشعبه بحيث يظهر فيما لا يكاد يحصى من الأعمال ، على أن جميع أعمال البر عرضة لأن يعصف بها الرياء فتصبح كسراب بقيعة . ومن أجل كل ذلك كتب عنه المحاسبى حوالى خمس وعشرين ومائة صفحة ، أى ما يزيد قليلا على ربع الكتاب وَوضعه تحت عنوان كتاب : « الرياء » .

وَيبدأ المحاسبى كتاب الرياء على الصورة العادية فى كتاب الرعاية ، كله سؤال السائل وإجابة المؤلف .

قلت : قد وصفت لى مراقبة الله – عز وجل – وذكر الرعاية لحقوق الله عز وجل ووجوه طلبها .

والأول من الواجب وَالفضل فما تخاف على إن قمت لذلك ؟

قال : أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه فى آخرتك ويذهب بحلاوته من قلبك .

قلت : ذلك أعظم للحسرة : أن أتعنى ثم يحبط ويبطل عملى وَما ذاك المعنى ؟ . اهـ .

ومما يحبط عمل المتقى : أن يحب ، أن يحمد ويوقر بسبب عبادته ، وَلابد من الإخلاص التام حتى يصل الإنسان إلى منزلة خاصة ومامن شك فى أن الإخلاص : منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين وَلكن الجميع مطالبون به ، وعلى قدر إخلاصهم يكون ثوابهم .

وَقد سأل رجل رسول الله ﷺ :

فقال يا رسول الله . فيم النجاة ؟

فقال : « ألا تعمل بما أمرك الله به تريد الناس » .

فسأله عن نجاته فى أعماله فأخبره بترك الرياء .